القسم الأول

إيران

مقدمة

نحن نعلم أن الحضارة أخذ وعطاء، فحين نبحث في نشوء وتطور الحضارة على أرض الوطن العربي، واستعارة شعوب أخرى لها، لا نعني بذلك أننا نمن على أحد، فحضارتا إيران واليونان صبّتا الخبرات المستقاة عن حضارتنا بقالب جديد أفادت منه حضارة الوطن العربي في العصور الإسلامية.

وعلى أي حال، بإمكاننا أن نشبه الحضارة بالموجة التي لها قمة وقعر، فحين يرتفع الجزء الأعلى منها ينخفض الآخر، لأسباب سياسية واقتصادية وفكرية. ومن تلك الحركة الموجية المتتابعة يأتي الجديد وتتطور العلوم، ولو بولادة عسيرة أحياناً.

وإن ما أنتجته اليونان في العهود الهلنستية منذ القرن الرابع ق.م وقبل ذلك، كان مهماً هو الآخر، وعاد للشرق بجوانب من اقتباسات أخذَت عنهم. كما كان مهماً ما أنتجته إيران في العهد الساساني وفي العصور الإسلامية، إذ اقتبست إيران مفاهيم في الأدب والفن والعلم، ومزجتها بتراثها الأقدم، فنتجت حلة جديدة من عناصر الحضارة.

إن دراسة حضارة إنسان الماضي، لدى جميع الشعوب، لأمر من الأهمية بمكان، نستخلص منه العبر، إلا أن ذلك لا يحدث دوماً، فأحداث القرن الماضي ومطلع الحالي تضع أمامنا مؤثرات واضحة، إلا أن ناقوس الخطر يدق باستمرار، لا سيما إذا كانت مقاليد الأمور بيد المجانين والسلاح والحروب، بما يذكرنا بقوله تعالى عن هذا اليوم: (**..حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ..**) (سورة يونس: الآية 24). فلا حضارة إنسانية تستمر ما دامت مقاليد الأمور بيد من أشرنا إليهم. والسؤال: ماذا سيحصل في الغد القريب، لا سيما وأنه ثبت أن المجالس المسماة بالدولية تعمل ضد الأمن واستقرار الجنس البشري. مع ذلك، فشعوب العالم ورؤساؤها لا زالوا يتفرجون على ما يجري. إنها مأساة حضارة اليوم التي لم تستفد من تجارب الماضي.

مما امتاز به القرنان الماضيان الكشف عن الحضارة الإنسانية عبر التنقيب في المدن والقرى والكهوف القديمة، لذا أصبحت الكثير من الحقائق التأريخية واضحة بعد أن كانت تعتمد النقل الشفوي الذي قد يتضمن الكثير من الملابسات

والمزاجية أو المصلحية. ومن ثم أصبحت المادة الآثارية علماً يخضع للدراسة الدقيقة بغية الوصول إلى نتائج أفضل لفهم ماضي التراث الإنساني.

على أي حال، إن ما وصلنا من نتائج التنقيبات يشير وبوضوح إلى أصالة الحضارات التي نشأت في وطننا العربي، مما جعلها مادة لحضارات أخرى كتلك التي نشأت في وطننا العربي، مما جعلها مادة لحضارات أخرى كتلك التي نشأت في كل من إيران وبلاد اليونان مادة بحث هذا الكتاب.

إن استعراض المادة التي تخص التأثيرات الحضارية التي ساهمت في نهوض الحضارات الأخرى هي من الأهمية بمكان لمعرفة التفاعل الحضاري بين شعوب العالم. والبحث الذي بين يدي القارئ يعرض لحضارات متأخرة زمناً عن تلك التي نشأت في كل من العراق وسوريا ومصر بشكل خاص، ووضعناه في قسمين بغية تقصي أبرز العناصر في إيران واليونان بما يوضح ما هو أصيل مبتكر أو سابق مستعار، عبر نظرة علمية مقارنة تضيف لمكتبتنا العربية دراسة جديدة.

الفصل الأول

دورنا الحضاري
في إيران

إن أهم ما يميز حضارتنا عن كثير من معطيات الحضارات الأخرى كونها نبعت من إحساس عميق وترددت آفاقها في ضمير الإنسان حيثما اتصل بها، مما جعلها زياً أنيقاً ارتدته الإنسانية في جميع مناسباتها.

أما بالنسبة لإيران فإن عطاء حضارتنا لها كان بمثابة عين لا تنضب. ومن الواضح أن التشابه الإقليمي يجعل عناصر الحضارة تنتقل بشكل أسهل من المناطق غير المتماثلة، ومن هنا جاء فضل قطرنا على عربستان أكثر منه في منطقة أخرى داخل إيران. قال ياقوت الحموي (القرن السابع للهجرة):

«وأما أرض خوزستان (أي عربستان) فأشبه شيء بأرض العراق وهوائها وصحتها، فإن مياهها طيبة جارية ولا أعرف بجميع خوزستان بلداً ماؤهم من الآبار لكثرة المياه الجارية بها، وأما تربتها فإن ما بعد عن دجلة إلى ناحية الشمال أيبس وأصح، وما كان قريباً من دجلة فهو من جنس أرض البصرة في السبخ وكذلك في الصحة[1]».

يروي عربستان عدة أنهار أهمها «كرخا»، وهو النهر الذي أطلق عليه الآشوريون «أقنو» أي اللازورد؛ وماؤه عذب لدرجة أن المؤرخ اليوناني هيرودوتس أشار إلى أن ملك الأخمينيين كورش (559-535 ق.م.) كان لا يخرج إلى معركة إلا ويأخذ جرة من الفضة يملؤها بمائه. أما النهر الثاني أو الأوسط فهو «ديز»، والذي أطلق عليه الآشوريون اسم «ديرده»، وهو ينبع من لورستان إلى الشمال من عربستان، ويلتقي مع النهر الثالث «الكارون» عند «بندي قير»[2].

ومنطقة عربستان سهلة، إلا أنها تأخذ بالارتفاع التدريجي اعتباراً من الخليج العربي، وعند العاصمة الأحواز ترتفع مئة متر عن المستوى. وربما

١- الحموي ياقوت، معجم البلدان، ج 2، بيروت 1955، ص 405.

2- Hinz,walter,The Lost World Of Elam,Britain,1972,P.18.

بسبب هذا الارتفاع سمّى السومريون المنطقة «نم»، أي المكان المرتفع أو النجد.

أما العاربيون الأكديون فقد سموا المنطقة «عيلام»، وهي تسمية بقيت قيد الاستعمال مئات السنين، وقد طغت حتى على المصطلح الذي أطلقه سكان الأحواز على منطقتهم، أي «خاروتي» أو «خافرتي»؛ في حين سمى الأخمينيون الفرس المنطقة خوزا، التي منها التسمية خوزستان، ولعلها إعادة لتسميتها الأقدم «خافرتي» محرفة[1].

تمثلت تأثيرات العراق الحضارية في إيران بما أنتجناه من عناصر الفن والفكر بأنواعه الأدبي والسياسي والعلمي.

مما لا شك فيه أن اللغة والكتابة العنصران الأساسيان في الحضارة، وقد كان من نصيب العراق اختراع الكتابة، فهي الصلة بين الإنسان وواقعه وماضيه وحاضره، وما يخطط من خلالها للمستقبل. لقد عرف أهل العراق الكتابة في عصر الوركاء (5300-5000) سنة مضت. ويمكن للمتتبع أن يلحظ تطور هذا الاختراع خطوة فخطوة على رقم الطين وبعض الحجارة، في حين أن ملاحظة هذا الشريط المتتابع في مصر ترجح انتقال فكرة الكتابة من العراق مع أقلمة بعض التفاصيل. وفي تلك الحقبة يمكننا أن نلاحظ اختراع الأختام الأسطوانية ونضوج فن النحت الواقعي ثم الرمزي وعناصر عمارية مهمة. كل هذه انتقلت إلى مصر أثناء عصري الوركاء وجمدة نصر، في حين لم نرَ العكس. ومثل هذا الأمر يصح على عربستان وإيران عموماً، إذ إن الكتابة هناك ظهرت بعد قرن أو قرنين من ظهورها في العراق[2]. وكما نعلم أن الكتابة ظهرت بشكلها الصوري أول الأمر ضمن مفردات تأثرت بها إيران حتى تطورها إلى المسمارية. وعلى أي حال «فعلى الرغم من الاختلافات في التفاصيل، إلا إنه من الواضح تماماً أن الصورية العيلامية اعتمدت على الأسلوب السومري. وقد انتشرت الكتابة بسرعة على طول خطوط التجارة والمحاصيل في الشمال الشرقي من كاشان (بين طهران وأصفهان) وفي أقصى الشرق من كرمان»[3]. وكما نعلم أن الخط المسماري الرافدي استمر في التداول منذ العهد الأكدي وعبر الحقبة الأخمينية الفارسية.

١- تاريخ إيران القديم، تأليف مجموعة كتاب، بغداد- 1979، ص 25.

2- Hinz, P.28.

3- HINZ; P.28.

بعد الخط المسماري ابتداع العاربيون[1] الكنعانيون في سوريا الحروف الهجائية التي انتقلت لإيران لاحقاً. وكان آخر فضل قدمه العرب عموماً اللغة العربية وخطها ليكون عصب «حضارة إيران عبر الحقب الإسلامية وإلى يومنا».

من العناصر المهمة التي ابتدعها أبناء حضارة الفراتين الختم الأسطواني الذي انتشر إلى مناطق واسعة بمواضيع عراقية كمصر مثلاً، أو بمواضيع فيها بعض الاختلاف طبقاً لبيئة الإقليم كالهند في حضارتي «موهنجو دارو» و «حاربا»، وبتغييرات أقل مما هو الحال في عربستان. وبما أن الختم كان اختراعاً عراقياً، لذلك استمر في البلد طوال جميع العهود التاريخية؛ أما في مصر فلم يستخدم الختم الأسطواني إلا لمدة وجيزة. وفي عربستان ظهرت الأختام بشكل مستمر. وبإمكاننا أن نجري مقارنات لما كان يطرأ في كل فترة. وإذا ما أتينا إلى فترة «جمدة نصر» نرى في أختام عربستان مشاهد من الحياة اليومية كعمل الفخار وحفر الأرض ونقل الأمتعة وركوب الماء، إلى جانب أشكال حيوانات مختلفة كالسمك والسلاحف، فضلاً عن التشكيلات الرمزية (الشكل 1). وكما نعلم أن عصر «جمدة نصر» في العراق امتاز بفنونه التشكيلية المتميزة، وكانت أوسع أفقاً مما ظهر في عربستان ذاتها. وبعد الفترة السابقة حلت فترة زاهرة هي عصور فجر السلالات (4800-4350) سنة مضت تميزت أختامها بروعة التصميم ودقة إنجاز المشاهد ذات الطابع الديني والاجتماعي بحقل أو حقلين (الشكل 2)، إذ أمسى صراع البطل للوحوش مظهراً متميزاً استمر زهاء الثلاثة آلاف عام، بل إنه انتقل إلى اليونان والرومان متحولاً من صيغة «جلجامش/ نركال» إلى صيغة هرقل بتسمية قريبة لبعضها وبالمواصفات عينها، فالبطل العراقي كان يصارع

١- يستخدم الباحث مصطلح «عاربيين» كبديل لمصطلح «ساميين» الذي ثبت عدم دقته وعلميته. وقد اعتمده باحث يهودي نمساوي هو «شلوتزر»حسب التوراة، دون أن يدخل مجموعته العرقية الغربية في هذا التقسيم. حول الموضوع يراجع: الشمس، ماجد عبدالله؛ في أصل العرب ومواطنهم (دار علاء الدين)، دمشق، ط 2، 2007م.

حيوانات مفترسة في مقدمتها الأسد، بيده أو بسكينه وعصاه (الشكل 35، 36، 37). أما في الفن اليوناني، فقد تحولت الأنهار إلى أشكال أشخاص والمشاهد مشخّصة بالإنسان، ومن ذلك أن تحول مشهد الصراع بين البطل الأسد إلى شخص يحمل جلد الأسد، إشارة لانتصاره عليه، والهراوة باليد الأخرى، إلا أن هناك مشاهد في الفترة العربية قبل الإسلام مثلت «جلجامش / نركال» أو «هرقل» بضرب أسد بهراوته بدلاً من حمل جلده، أي بتمثيل المشهد كاملاً (الشكل 38)، مما يؤكد استمرار الصلة. ومما تجدر الإشارة إليه أن التمثال النموذجي الذي أطلق عليه اسم «هرقل» كان يسمى في الحضر العربية باسم «نرجول»، وهو «نركال» السومري إله العالم الأسفل كإله للحظ بشكل «نرجول - جندا»[1]. وعلى أي حال فإن إحدى منحوتات «بيرسبوليس» ترينا الملك دارا الفارسي وهو يطعن الأسد، مما يذكرنا بمشاهد الصراع المألوفة في الفن العراقي (الشكل 13).

أما في العصر الأكدي، فقد سيطر العراق على إيران، ومن ثم أمست فنوننا المنهل المباشر لإيران. وكما نعلم من خلال القطع الدقيقة والمتميزة للفن الأكدي أن الفنانين، في هذه الحقبة، أنجزوا أشكالاً وصلت إلى ما وصلت إليه مشاهد يونانية من حيث الاهتمام بالنسب والدقة. أما بالنسبة للأختام، فقد ظهرت مشاهد جديدة لم نعهدها من قبل: كاستخدام العربات والسفن، وظهور بعض الشعارات الدينية الجديدة (الشكل 3).

وفي العصر السومري الحديث، الذي بدأ قبل نحو 4100 سنة واستمر زهاء القرن، ثم العصر البابلي القديم، الذي استمر زهاء الأربعة قرون، ظهرت في الأختام مشاهد لإله ملتحٍ يجلس على كرسي ويرتدي غطاء رأس ذي قرون ولباسه متدرج ذو خصل، وأمامه إلهة واقفة تقدم له شخصاً أو إلهاً أو مجموعة آلهة. كما استمرت حقول الكتابة المسمارية بالظهور ورموز بعض الآلهة. وهذه التشكيلات هي عينها التي تظهر في عربستان (الشكل 5).

أما ما يتعلق بالأختام الآشورية في عهدها الحديث، فقد عرضها الباحث من خلال تقديم المقارنات مع أمثلة الحقبة الأخمينية.

١- الشمس، ماجد عبد الله؛ «رايات الحضر العربية»، سومر، بغداد - المجلد 39 - 1980، ص 198. يراجع أيضاً: الصالحي، واثق؛ «هرقل جندا» (إله الحظ في الحضر)، سومر - م 29، ص 151-156.

أما فن النحت، فكان عنصراً حضارياً مهماً في العراق، فمنذ العصر الحجري الحديث زودنا موقع «تل الصوَّان»، إلى الجنوب من سامراء، بنماذج بديعة للنحت بالرخام الشمعي، من فترة تعود لنحو سبعة آلاف عام. إلا أن النماذج المذكورة صنعت لأغراض طقسية لتوضع في القبور. إلا أن نماذج النحت، بأنواعها: البارز والغائر والمجسم والكامل أو المدور ظهرت بشكل خاص في عصري «الوركاء» و «جمدة نصر» بنوعيها الواقعي والتجريدي، وما ظهر في العراق له ما يوازيه في عربستان، ولكن بمضاء أقل.

وعبر عصور فجر السلالات (4800-4350 سنة مضت) اتسعت التجارة مع العالم الخارجي بشكل أكثر من السابق، فتراكمت الثروات ونمت المدن ونشأ الصراع من أجل توسيع الرقعة، حتى إنه كانت عصور نشوء دويلات لم تتوحد إلا لاحقاً. أما بالنسبة لفن صناعة التماثيل، فقد قلدت إيران النماذج العراقية، من ذلك أشكال التماثيل التي سادت في عصر فجر السلالات الثالث، لا سيما تلك التي نرى فيها مراعاة تصفيف الشعر والعيون المطعمة بالحجارة والمثبّتة بالقير، وارتداء الرجال للتنورة والرداء الكامل، وتعرية الجانب الأيمن لأعلى الصدر للنساء، وكذلك وجود الخصل التي تزين الرداء التي أطلق عليها السومريون والبابليون اسم «كوناكو»، وانتقلت إلى اليونان تحت اسم «كاوناكيس»[1].

وأثناء العصر الأكدي حدث التماس المباشر، وقد سبق ذكر ذلك، وما كان له أثر في ولوج العناصر العراقية الحضارية إلى إيران؛ بل وحتى النظام الإداري. ثم عقبت الحقبة الأكدية فترة ركود وخمود حضاري لمجموعات خالية من أبسط مقومات الحضارة جاءت من إيران عبر المنافذ الشمالية، وأولئك هم «الكوتيون» الذين استمروا بالتواجد زهاء القرن، حتى استطاع العاهل السومري «لوكال زكيزي» (قبل نحو 4100) طردهم من القطر. وعلى الرغم من استمرار وجود الدخلاء، فقد حدثت في عصر أمير لجش «جوديا» نهضة ثقافية عمرانية، حتى إنه جلب عمالاً إلى لجش لنقل الأتربة والأطيان من الأحواز، وقد مثلهم في قاعدة إحدى تماثيله المحفوظة

١- الشمس، ماجد؛ «أزياء السومريون في عهدها المبكر»، مجلة التراث الشعبي - بغداد، العدد 11، 1970، ص 39.

بمتحف «اللوفر». وفي هذه الحقبة ظهرت الآلهة ذات القرون أيضاً واللحية بشعرها الحلزوني في عدد من الأعمال الفنية في العراق، وقد يظهر الإله جالساً وهو يحتضن مخروطاً، وفي تمثال «كوتيك انشوشناك» يظهر الملك محاكياً تماثيل الآلهة العراقية، بتاجه المقرن واحتضانه شكلاً مخروطياً (الشكل 4). وفي الحقبة التالية، السومرية الحديثة، استمرت المؤثرات عبر أواصر السلم والحرب.

أما في العصر البابلي القديم (4000-3500 سنة مضت) فقد توحد العراق في عصر الملك «حمورابي». وقد استمرت العلاقات بين البابليين والعيلاميين على غير ما يرام في جانب من هذه الحقبة. وبعد سقوط العصر البابلي القديم، جاء العصر الوسيط أو «الكاشي». وقبل نحو 3100 عام جاءت فلول ملك عيلام «شتروك ناخونته» التي استولت على مسلّة «حمورابي» ونقلتها إلى سوزه، وهناك حاول العيلاميون تغيير بعض العبارات، إلا أنهم وقفوا عند حدهم، ربما خوفاً من لعنات الآلهة أن تسلط عليهم غضبها، حسبما دوّن «حمورابي» في ختام شريعته. إلا أن العيلاميين قاموا بمحاولة لتقليد القسم العلوي لمسلة حمورابي دون أي قوانين على حجارة لا يتجاوز طولها (67 سم)، (الشكل 4).

أما فيما يتعلق بالحقب الآشورية والبابلية الحديثة، فقد تركنا الكلام عن المؤثرات العراقية إلى حين استعراض الحقبة الأخمينية التالية للعصر البابلي الحديث.

وفي ميدان العمارة كان العراق وسوريا متفوقين من حيث اختيار مواد البناء والتسقيف والعناصر الجمالية. ومما نراه في عمائرها استمرار عناصرها عبر آلاف السنين، في حين نراها وقتية في إيران، أو إنها أتت بعد العراق وسورية، ومثال على ذلك التخطيط الأرضي والساحة التي تطل عليها الغرف. أما العناصر العمارية المستخدمة للأغراض الدينية فكانت من الغنى بمكان، ومن ذلك الصرح المدرج أو الزقورة التي شرع سكان الرافدين ببنائها ضمن مقومات واضحة اعتباراً من سلالة أور الثالثة قبل نحو 4100 عام، واستمرت الصروح المدرجة في التداول حتى نهاية آخر عهد وطني بانتهاء سلالة بابل الحديثة. أما إيران فإن أمثلة الصروح المدرجة فيها قليلة جداً،

ومنها زقورة «تشوكازبل» المبنية بالطابوق وبالعناصر العراقية ذاتها، إلا أنها لا تعود لأكثر من 1300 ق.م. (الشكل 7).

ولو جئنا إلى عناصر التسقيف، لرأينا أن أنواعه المختلفة بعمله مستوياً أو على شكل قبو بأساليب مختلفة أنجزه مجاريو القطر منذ تشكيل أول القرى على أرضه. فإلى جانب السقوف المستوية المشكلة بالحصران والخشب والطين، عرف العراقيون والسوريون القدماء الأقبية، وتفننوا في إقامتها منذ عصر «الوركاء»، كما في بناء من «الأربجية» في محافظة نينوى؛ وفي عصور فجر السلالات، كما في مقابر «مدينة أور»، وعبر الفترات السومرية والبابلية والآشورية، وحتى عبر عهود الإسلام.

وبإقامة الأقبية والقباب المقبوة domical vaults ابتدعوا الدلايات (البندنتيف) لتحويل الزاوية في الغرفة إلى شكل يمكن إقامة القبو عندها، كما في بعض أمثلة مقابر «أور» الملكية من عصر فجر السلالات الثالث، وبالمثل إقامة حنايا ركنية مخروطية عند أركان الغرف لتسهيل إمكانية عمل القبة المقبوة كما في موقع «تل الرماح» قرب «تلعفر» منذ نحو 4000 عام (الشكل 33). ومن الواضح أن أسلوب إقامة حنايا ركنية مخروطية عند الأركان لتسهيل عمل القبة منسوب لإيران، ونرى من أمثلته الشاخصة نموذج قصر سرفستان (الشكل 34).